٤٠ ـ المصريون المحدثون

شمـــائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الثالث عشر ـ الأفيون

كثيراً ما يقسم المسلم بالله وبالرسول وبرأس مخاطبه ولحيته. وعند ما يُخبَر أحدٌ بخبر يثير دهشته وعدم تصديقه يصيح: والله؟ فيجيبه الآخر: والله. وكما أن العادة أن يبسمل المسلم قبل الطعام والشراب، يفعل ذلك أيضاً عند ما يتناول دواء أو يكتب شيئاً أو يبدأ مشروعاً مهماً، ثم يحمد الله بعد البسملة

وعند ما يتعاقد اثنان يتلوان الفاتحة معاً. والعادة عند ما يتجادل البعض في عمل أو رأى أن يصيح أحد الطرفين أو آخر بعد غض النزاع أو تهدئة المتخاصمين: «الصلاة على النبي»، أو «صلوا على النبي» فيقولان بصوت منخفض: «اللهم صل عليه» ثم يستأنفان المجادلة ولكن باعتدال على العموم.

كثيراً ما يُسمع في المجتمع المصري العبارات الدينية تعترض الحديث في الأمور الحقيرة والخليعة أيضاً. وقد يكون ذلك أحياناً بطريقة تحمل من يجهل أخلاق هذا الشعب على أن يظنه هزؤا بالدين. ويكرر المصريون اسم الله في الكثير من أغانيهم الماجنة من غير قصد للاهانة طبعاً، وإنما يفعلون ذلك لاعتيادهم إقحامَ اسم الله في كل ما يدعو إلى الدهشة أو العجب، فيعبر الماجن عن انفعاله بالجمال عند رؤيته فتاة فاتنة بقوله أثناء كلامه الفاحش:

«تبارك الذي خلقك يا بدر»

وسأورد المقطوعة الأخيرة من أحد الموشحات مثالاً للطريقة الغريبة التي يختلط بها الفجور والدين في الأدب العامي المصري:

قابلني الرشيق بعد البعد والاحتجاب. فقبلت ثناياه وخده، ودن الكأس بيده، وطاح المسك والعنبر من جيوب أدرشق قواماً من غصن البان. وبسط سريراً سندسياً، وقضيت الوقت في سعادة متصلة. لقد استعبدني ظبي تركي

والآن أستغفر الله ربي من كل خطاياي ومن كل ما همس في نفسي. إن أعضائي تشهد عليّ. ومتى قهرني الحزن فأت أملي يا ربي في كل ما يحزنني. أنت تعلم ما أقول وما أنوي. أنت الكريم الغفور. إني ألوذ بحماك فاغفر لي.

وقد زارني أحد أصدقائي المسلمين بعد كتابة الملاحظات السابقة توا فقرأت عليه القصيدة وسألته أيليق أن يمزج الدين بالخلاعة هكذا؟ فأجاب: «نعم، يليق كل اللياقة. فهذا رجل يذكر خطاياه ثم يستغفر الله ويصلي على الرسول». فقلت: «ولكن هذه قصيدة قيلت لتسلية هؤلاء الذين ينهمكون في الملذات المحرمة. ثم لاحظْ أن الصفحة التي تصف الفسق تقابل التي تذكر أسماء الله عند ما أطوي الكتاب فيكون وصف الملذات الأثيمة فوق ذكر الاستغفار». فأجاب صديقي: «ذلك عبث. اقلب الكتاب جاعلاً أسفله أعلاه ينعكس الحال فيغطي الغفران المعصية. وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً وهو الغفور الرحيم» (الآية ٥٢ من سورة الزمر). وقد ذكرتني إجابته ما لاحظته كثيراً من أن غالبية العرب — وهم شعب كثير التناقض — يستمرون في مخالفة الشرع اعتماداً على أن عبارة: «أستغفر الله» تمحو كل خطية. وكان بين يدي صديقي نسخة من القرآن فوجدت فيها عند بحثي على الآية المقتبسة ورقة عليها كلمات من الكتاب الكريم، وكان الرجل على وشك أن يحرقها لئلا تسقط فتداس. فسألته: أيجوز ذلك؟ فأجاب: إما أن تحرق وإما أن تلقى في مجرى ماء. والأفضل حرقها، إذ أن الكلمات تصعد مع اللهب فتحملها الملائكة إلى السماء. ويستشهد المسلمون حتى أشدهم تُقى بالقرآن عند المزاح. وقد حدث مرة أن طلب أحدهم أن أهدي إليه ساعة فأوعز إليّ بهذه العبارة الملتبسة: إن الساعة آتية أكاد أخفيها (الآية ١٥ من سورة طه)

وكثيراً ما يشاهد المرء في المجتمع المصري ناساً يتلون آيات وأحاديث تناسب المقام، ولا يعتبر مثل هذا الاقتباس — كما هو الحال في مجتمعنا — نفاقاً أو مملاً، وإنما يثير إعجاب المستمعين ويصرفهم

عن تافه الحديث إلى جده . ويشغف مسلمو مصر وغيرها من البلدان ، على ما أعتقد ، بالحديث الديني . وتحيى أكثر الحفلات عند الطبقتين الوسطى والعليا في القاهرة بتلاوة (ختمة) أو إقامة (ذكر) . وقلما يجرؤ أحدهم على التصريح بتفضيل الموسيقى على الختمة أو الذكر اللذين لا جرم يبتهجون بهما . والحق أن الطريقة التي يرتل بها القرآن أحياناً حسنة جداً ولو أن سماع الختمة كلها قد يُمل غير المسلمين

يدهشني شدة تمسك المسلمين بدينهم على الدوام ؛ غير أني أعجب لقلة محاولتهم دعوة الغير إلى الإسلام . وكثيراً ما عبرت عن دهشتي لتغافلهم عن نشر دينهم مخالفين أسلافهم في صدر الإسلام فكانوا يجيبونني : « أي فائدة في هداية ألف كافر ؟ هل يزيد ذلك عدد المؤمنين ؟ أبداً . لقد قدر الله عدد المؤمنين ولا يستطيع الإنسان أن يزيده ولا أن ينقصه » . ولم أخاطر بالرد خشية أن يؤدي اعتراضي إلى جدال لا حد له . وقد سمعتهم يدافعون عن إهمالهم إدخال الناس في دينهم بذكر الآية السادسة والأربعين من سورة العنكبوت : « ولا تجادلوا أهل الكتاب » دون أن يذكروا العبارة التالية مباشرة : « إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد » . ولو كان المسلمون عملوا بهذه الوصية لأدى جدالهم إلى تحرير أفكارهم وترقية معارفهم

يقدس المسلمون المحدثون الرسول غاية القداسة ويقسمون كثيراً باسمه . ويلتمس شفاعته المتعلمون والجاهلون على السواء . ويتأثر الحجاج من زيارة القبر النبوي أكثر مما يتأثرون بقيامهم بالشعائر الأخرى . وهناك فئة لا تأتي عملاً لم يتقرر قيام الرسول به فيمتنعون خاصة عن أكل ما لم يأكله ولو ثبت إباحة تناوله . وما كان الإمام أحمد بن حنبل يأكل البطيخ لأنه مع علمه أن الرسول أكله لم يستطع أن يعرف ما إذا كان يتناوله بقشره أو بدونه أو إذا كان يكسره أو ينهشه أو يقطعه ، كما أنه نهى امرأة جاءت تستفهمه عن الغزل ليلاً على ضوء مشاعل الغير أثناء مرورهم في الشارع ، لأن الرسول لم يذكر شرعيتها ولا يُعرف عنه أنه انتفع من ضوء غيره بدون إذن . وقد أعجبتُ مرة بمنافض جميلة ينفض فيها رماد الشبك ؛ فسألت صانعها لماذا لا يسمها باسمه ؟ فأجاب : معاذ الله ! إن اسمي أحمد وهو أحد أسماء الرسول فهل تريد أن أضعه في النار ؟ وقد سمعت شكوى الناس من الباشا لأنه وسم جمال الحكومة وجيادها باسمه (محمد علي) . وقال الذي ذكر لي هذا الحادث : إن الميسم الذي نقش عليه هذان الاسمان الواجب احترامهما ، اسم الرسول (ص) واسم ابن عمه رضي الله عنه ، توضع في النار وهذا منكر ، ثم يوضع على رقبة الجمل فيسيل الدم النجس فيدنس الاسمين المقدسين على الحديد وعلى جلد الحيوان . والمحتمل عند ما يندمل الجرح بل المحتم أن يضع الجمل وهو راقد رقبته على شيء قذر

ويبعث مثل هذا الشعور المسلمين على أن يعترضوا على طبع كتبهم . ويندر أن يكون لهم كتاب لا يتضمن اسم الله ، ولا أذكر أني رأيت كتاباً خلا منه . فالقاعدة أن يصدر الكتاب بالبسملة وتبدأ المقدمة بحمد الله والصلاة على الرسول . ويخشى المسلمون أن يدنس المداد الذي يطبع به اسم الله ، أو الورقة التي يطبع عليها . ويخشون أيضاً أن تصبح كتبهم عند طبعها رخيصة الثمن فتقع بين أيدي من لا يصونها . وفكرة استعمال فرجون من شعر الكلب ، وكانت تستعمل أولاً هنا ، لوضع الحبر على اسم الله أو على كلامه تكدرهم كثيراً . ومن ثم لم يطبع الكتب في مصر حتى الآن إلا الحكومة ؛ غير أن اثنين أو ثلاثة استأذنوها في طبع بعض الكتب في مطبعتها فأذنت لهم . وأعرف كتبياً هنا رغب طويلاً في طبع كتب كان يثق بعظيم ربحها ولكنه لم يستطع أن يتغلب على تردده في شرعية هذا العمل

(يتبع) عبد الله طاهر نور

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات (الرسالة) مجلدة بالأثمان الآتية : السنة الأولى في مجلد واحد ٧٠ قرشاً ، و ٧٠ قرشاً عن كل سنة من السنوات : الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة في مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وقدره خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً في الخارج عن كل مجلد